من الأدب الانكليزى

مرثيـــة جراى

[تعد هـذه المرثية من أبلغ المراثى فى الشعر الانكليزى ، قرأها على صديق الأستاذ حيدر الركابى فنقلتها إلى العربية كما فهمتها] «على»

للأستاذ على الطنطاوى

قُرع الناقوس ينعى النهار الآفِل ، وراح القطيعُ يزحف يبطء يتسلق الهضبة راجعاً الى القرية ؛ وعاد الفلاح الى البيت يجر رجله تعباً ... وبقى العالم لى وللظلام !

***

تَدَثّر الكون بالسواد ، وتوارى عن الأنظار ، وسكنت الدنيا سكوناً مَهيباً ، ولم يبق فى الجو نأمة تسمع ، إلا هـذه الأصوات العميقة تفيض بها الأودية البعيدة والشعاب النائية ، وإلا طنين حشرة تطير ، ونعيبُ بوم على تلك الدوحة ، يشكو ظلم الناس وعدوانهم على وكره الآمن

***

هنالك .. عندَ تيك الشجرات القديمات ، تحت تلك الرَّجام التى يزدحم عليها العشب ، ويَتكَوَّمُ الكلأ (١) ... كان «أجداد القرية» ينامون إلى الأبد فى حفرهم الضيِّقة ، وأجداثهم العميقة

***

لا يوقظهم نسيم الصباح الأرج ، ولا تغريد البلبل الطَّرب ولا زقاء الديك المزهو ، ولا زَمّارة الراعى السعيد ... كل ذلك لم يعد يوقظهم من رقدتهم

***

لا . ولن توقد من أجلهم نيران المداف ، ولن تقوم فى خدمتهم ربات المنازل ، ولن يهتف أطفالهم الأَلثغ فرحين بمقدمهم ، ولن يَتَسلَّقوا ركبهم يستبقون إلى أحلى تَحْنِيةٍ لهم قبلةمن آبائهم عند عودتهم إلى منازلهم وأهليهم

***

كم كان المنجل العضب يخضع لسواعدهم ، وكم كانت الأرض الصَّلدة تشقق تحت معاولهم ، والغابة القاسية كم لانت لضرباتهم

***

كان عملهم مفيداً ، وحياتهم مجدية ، فلا يسخر الطموح من مسراتهم الهينة ، وحياتهم المجهولة ، ولا تستمع العظمة هازئة حديث الفقر ، وقصته الساذجة القصيرة

***

فان فخر القواد ، وعظمة الأقوياء ، وكل ما تمنحه الثروة ، ويأتى به الجمال ... كل ذلك ينتظر الساعة التى لا مفر منهـا ، والنهاية التى لا محيد عنها ، لا فرق فى ذلك بين عظيم وحقير ، لأن طريق المجد لا ينتهى إلا إلى القبرّ !

***

فيأيها المغترون ، لا تلوموا هؤلاء المساكين إن خلت قبورهم من نُصُب المجد ، وتماثيل العظمة ، على حين تتصاعد ألحان الثناء وأغانى المديح ، من بين جدران المدافن الفخمة ، وتحت أقبيتها المزخرفة

***

لأن البَخُور المحروق ، والتمثال المنحوت ، لا يرد الروح على الميت الراقد ، وهُتاف الناس ، وعجيج الجماهير ، لا ينفخ الحياة فى التراب الجامد ، وهمس المَلق ، وهجس الزلف ، لا يبلغ سمع الموت البارد !

***

ومن يدرى ؟ فلعلّ فى بطن هـذه البقعة المهجورة قلباً كان يمكن أن يفيض منه النور السماوى ، ويداً كانت تدير دفّة المركب السياسى ، وأصابع كان يمكن أن تغنى على أوتار القيثارة الخالدة فتنشئ النغم السحرى . . . لولا أن العلم لم يفتح أمامها صفحاته الحافلة بثمرات الزمان !

***

أخمد النسيان جذوة أرواحهم النبيلة ، وأجمد نهر حياتهم الجارية ، وطغا عليهم لج الزمان ... ولكن ، كم فى جوف البحر من جواهر مخبوءة ، ولآلئ مجهولة ، وكم فى عرض البادية من وردة تفتحت واحمرت ، فلم يرها أحد ، فضاع أريجها العطر فى رياح الصحراء

***

(١) تكوم الكومة ، وتكومت من العامى الفصيح

ومن يدرى ؟ فلعل هنا بطلاً (كهامْبيتن) كان حاكماً فى حقوله مطلقاً ، وكان جباراً شجاعاً ، ولعل هنا (ملتون) آخر ، ولكنه صامت مغمور ، ولعل هنا (كرمْوِل) ، ولكنه كرمْوِل برئ من دم أبناء الوطن !

* * *

منعهم القدر من الاستمتاع بهتاف الجماهير ، وتصفيق البرلمانات ، ومنعهم من المغامرة ، وركوب الأهوال ، وازدراء المصاعب ، واحتقار العقبات ، ومنعهم من نثر الخيرات على بلادهم ، وقراءة تاريخهم فى عيون الشعب

* * *

ولكن القدر لم يمنعهم مزاياهم وحدها وفضائلهم ، بل منعهم رذائلهم أيضاً وجرائمهم . . . فلم يرتقوا العروش على الجماجم ، ولم يسدوا أبواب الرحمة على البشر ، ولم يخفوا حمرة العار والخجل ، ولم يخفتوا صوت الضمير ، ولم يعطروا معابد ترفهم واستكبارهم بالبخور الذى تحرقه « ربّة الشعر »

لقد اتبعوا طريقهم السوى فى وادى الحياة المنعزل البارد ، وساروا فيه صامتين ، لم تتعلم أمانيهم القريبة ، وشهواتهم البريئة الخروج بهم عن صفوف الشعب المناضل على الحياة ، المزاحم على البقاء

* * *

ولكنهم – مع ذلك – لم تخل قبورهم ، من أثر للذكرى ضئيل : شعور مكسور ، ونقش محطوم ، يستجدى المارة آهة العطف ، وهمسة التقدير ، ويحفظ عظامهم من أن تهان

* * *

إن هذا الشعر — شعر الأميّة الساذجة — الذى ينطق بأسمائهم وأعمارهم ، يقوم مقام التعظيم والتبجيل والرثاء ، وينشر بين القبور نصوصاً مقدّسة ، تعلم الربين والملايين كيف يصمتون ويتعلمون

* * *

وأى امرىء مهما بلغ من خمول الذكر والهوان على الناس يترك الدفء والنور والسعادة من غير أن يتلفت الى الوراء فيودع العالم بنظره . . . إن الروح الراحلة تريد أن تتكئ قبل رحيلها على صدر محب ، والعين المغمضة تحتاج قبل اغماضها إلى دموع الاخلاص . . . بل إن صراخ الحياة لينبعث من صميم القبر فيضرم نارها فى رَمادنا البارد

* * *

وبعد ، فيأيها الشاعر الذى يقوم فى المقابر ، ويندب الموتى المنسيين ، إنى لألتفت الآن إليك ، فأرى رجلا مثلك ، شاعراً هائماً ، قد جاء يبحث عما حلّ بك ، وانتهى اليه مطافك ، فوجد فلاحاً هرماً فسأله عنك ، فقال له :

لقد طالما رأيناه عند انبلاج الفجر ، يسرع الخطو ليستقبل الشمس من ذروة الهضبة

وطالما لمحناه فى الظهيرة متمدداً بجسمه المنهوك على أقدام تلك الشجرة الهرمة ، وفوق جذورها البادية العجيبة يرقب الجدول الذى ينساب إلى جانبه ، ويتأمل أمواهه الهادرة المتكسرة ، وطالما أبصرناه هائماً على وجهه بالقرب من هذه الغابة باسماً آناً كأنه ساخر من كل شيء ، وآنا عابساً كئيباً كأنه مضنى هدته الآلام ، أو مريض قتله الحب اليائس

* * *

وفى ذات صباح ، نظرنا إلى الهضبة فلم نجده ، فبحثنا عنه فى الذروة ، وعند الشجرة ، وإلى جانب الجدول ، وبالقرب من الغابة فلم نقع له على أثر

ثم رأينا شاعراً آخر يحتل مكانه

ثم رأينا بعدُ نعشه محمولاً إلى المقبرة ، ترتل من حوله أناشيد الموت

* * *

وها هو ذا قبره : قائم تحت تلك الشجرة التى كان يجلس اليها ، فتعال اقترب ... اقرأ ما عليه :

« هنا .... فى حضن الارض ، يرقد شاب تجهله الثروة ولا يدرى به المجد ، ولا يعرفه إلا الحزن الذى اصطفاه خليلاً وهو فى المهد .

كان كريماً مخلصاً ، فكانت مكافأته عظيمة ؛ منح البائسين كل ما يملك : وهو دمعه : ومنحه الله كل ما يطلب : وهو صديق

لم يحب أن يفيض فى ذكر مزاياه أكثر مما أفاض ، ولم يشأ أن يهتك الستر عن نقائصه ، لأنه أودعها كلها أمانة فى قلب أبيه ، وعند ربه ... »

على الطنطاوى